

المأثرون والفضل بن سهل^(١)

للاستاذ محمد أحمد راق

جرت عادة المتقدمين أن يصفوا أقدادهم بصفات تدل على نواحي نبوغهم ، وتنطق بما كان لهم من فضل وأثر يشيعان في جوانب حياتهم فيشتهرون بهذه الصفات ويعرفون بها إذا أضيفت إليهم ، ومن هؤلاء من وصفوا بنى الوزارتين ، وذى القلبين ، وذى اليمينين ، وذى الرحين ، وذى النورين ، والفضل بن سهل ذو الرياستين .

وهو الفضل بن سهل بن زاذانفروخ ، ويظهر من اسمه أنه ما كان عربياً - في الاسلام ، فجده زاذانفروخ مجوسى ، وأبوه سهل مجوسى ، وهو نفسه مجوسى ، ولكن الله شرح صدره للاسلام كما شرح له صدر أبيه بعد أن تمجسا صدرا من عمرهما ، فقد وجدا آباءهما على أمة فاقتديا على آثارهما .

وقد هيا الله لسهل أسبابا حملته على الاسلام راضيا أو غير راض ، ثم هيا لابنه الفضل أسبابا حملته على الاسلام أيضا راضيا أو غير راض : فقد يكون اسلام سهل ليدفع به عن نفسه ضرا يحيط به من جبرته ، وهو يستعدى بإسلامه من يصدون عنه المعتدين عليه ، وسالبيه مالا مقسوما له ، أو هو يسترضى قوما مسلمين متصلين بصاحب السلطان ليكون له من قوتهم قوة ، فلا يقتحمه جيرانه ولا ييذونه ،

ومهما يكن من سبب فإن سهلاً دخل في الإسلام : فإن أخاه يزيد الذي توكل بحجارية عاصم بن صديح كان له ضيعة أحسن القيام عليها ، فوفر ماله ، واكتنه يخلص لجارية عاصم حتى يحظى عندها حظوة شديدة ، فينتقم عليه عاصم لفرط الحظوة ويتممه ، ويحقد عليه ، ويشتد به ذلك حتى يدعو وهو سكران ، ويضربه بسيفه ضربة تقضى عليه .

إذن ، مات يزيد ، وورثه أخوه سهل ، وصارت إليه ضيعة أخيه وبيته ، ولكن عاصماً يخاصم سهلاً ، ويلج في الخصومة ، حتى يضع يده على ما تركه يزيد ، ويمنعه سهلاً ، فن يستعدى سهل على عاصم ليخلص له مال أخيه ؟ ومن ذا الذي يستطيع أن ينصر سهلاً على عاصم وهو مولى داود بن علي ؟

فكر سهل وقدر ، ثم فكر وقدر ، حتى هداه تفكيره وتقديره إلى باب يحيى ابن خالد البرمكي صاحب الحول والطول في دار الخلافة . ولكن من لمثل سهل يحيى البرمكي ودونه الحجاب والموالى ؟ يخال على ذلك ، فيتصل بسلام أحد موالى يحيى ، يلجأ إليه ، ويعتصم به ، ويستعين بيده على ظلامته ، فيجيب سلام داعى سهل ، ويرسل إلى عاصم أحد الموالى في جماعة من الناس ، فينزعون منه الضيعة قوة واغتصاباً ، ويقرونها في يد سهل ، ويحمونه ويحمون ولده وماله من وكلاء عاصم ومواليه .

وكان سهل إلى ذلك الحين مجوسياً ، يتعبد كما يتعبد المجوس ، ويژهزم كما يژهزمون ولكن صنيع يحيى أخرجه عن مجوسيته إلى الإسلام ، فهل عرض عليه سلام أن يسلم لانه نافع عنه ورد إليه ماله ؟ أو كان ذلك برا بموعدة وعدها إياه : لئن رد عليه ماله ليدخلن في دينه ، أو تقرب سهل إلى سلام بدخوله في دين الإسلام ليعظم في عينه فيتحمس للدفاع عنه ؛ أو سره أن من المسلمين من ينصف المظلوم ، وإن كان على غير دينه ، فأعجبه ذلك الخلق الجميل ، فدفعه إعجابه إلى الدخول في الإسلام . وإذا لم يكن هذا ولا ذاك فلماذا لم يسلم سهل قبل ذلك ، وهو يعاشر المسلمين ، ويعيش في كنفهم ، ويعرف شيئاً من تعاليم دينهم ؟

وأيا كان الامر فان سهلا أسلم ، واستمسك به سالم ، ونصب نفسه للدفاع عنه ، وحيطه ماله ، حتى إن عاصما حينما تظلم ليحيى من سلام ، فأمنكر يحيى على سلام ما فعل — قام سلام مدافعا عن تصرفه ، واقتص القصص على يحيى ، وأحضره سهلا فقام أمامه بحجته ، حتى تبين أنه على حق ، فعاونه على عاصم وكفه عنه .

ولعل اشتكاه عاصم سلاما جعل سلاما يستمسك بسهل ، ويزيد في قربه إليه ويتولى أمر ضيعته بنفسه ، فيلزمه سهل ويخدمه حتى يعرف البرامكة ، وحتى يعرفه البرامكة ، فيستحضر ابيه الفضل والحسن إلى ذلك الرحاب ، الواسع الجنب ، ويلتحق الفضل بن سهل بخدمة الفضل بن يحيى ، ويلتحق الحسن بن سهل بالعباس ابن الفضل بن يحيى ، ثم يعرفهما يحيى بن خالد نفسه ، ويقربهما إليه ، ويرعى لهما ولايتهما ، ولم يأل جهدا في ايلائهما جميله ، وهو يحافظ على يسير الخدمة ، ويصطنع من يتوسم فيهم الصلاح لخدمته ، ويجازيهم معروفا بمعروف ، ويقابل الحسنة بعشرة أمثالها .

والظاهر أن الفضل بن سهل لم يدخل في الاسلام أول اتصاله بالبرامكة ، فقد ذكر بعضهم أن الفضل بن سهل من جماعة وهو د على فرس عرى ، وعايه جبة وشى ، وهو بغير سروال ولا خف ، ويده سيف مشهر ، وخلفه مجوسى طويل العنق ، فوقف المجوسى عليهم ، فاستسقى ماء ، فأتى بماء فى كوز خزف أخضر ، فقال المجوس إنكارا لكوز الخزف : أوشك أن تذهب الدهقة حتى لا يبقى لشيء منها أثر ! أين الفضة ؟ فقال رجل حظرها الاسلام ، قال : فأين الزجاج ؟ قال : منع منه غلظة الهواء ، فأخذ الكوز فشربه ، ثم قال له الرجل : أما ترى إلى صاحبكم هذا ، ما يصنع بنفسه ! ؟ فقال : اجتمع له سكر الشباب ، وسكر الشراب ، وسكر السلطان ، وسكر الجدة ، وسكر السخاء . ومضى يتبعه فسألنا عنه ، فقليل : هذا الفضل بن سهل كاتبه .
اه من الوزراء والكتاب .

إذن : الفضل بن سهل يخدم الفضل بن يحيى ، ويمشى في ركابه ، ويتولى الكتابة له ، وهو مجوسى وكان الفضل بن سهل يجيد الفارسية كما يجيد العربية ، ويحسن الترجمة من الاولى الى الثانية ، ولعل ذلك كان من أسباب تمكنه من نفس جعفر بن يحيى ،

وحظوته عنده ، ولعل الفضل بن يحيى هو الذى قدم الفضل بن سهل إلى أبيه يحيى فعرفه وعرف فيه صفات طيبة تدل على مستقبل عظيم ، وتنبؤ عن عبقريّة نادرة ، حتى إنه قال له يوما : « فى كل أربعين سنة يحدث رحل يحدد الله به دولة ، وأنت عندى منهم ،

فالفضل بن سهل يعظم فى عين يحيى البرمكى ، حتى يتنبأ له بأيام سعيدة مقبلة ، وقد زاد إعجابه به حتى إنه ترجم له يوما كتابا من الفارسية إلى العربية فأعجب بفهمه وعبارته وحسن نقله ، فأراد أن يدلّه على الطريق التى يتأق فيها نجمه ، ويسعد جده ، ويسير بين الناس ذكره ، أراد أن يدلّه عليها ضناً بذكائه أن يضع وبعبقريته أن تقبر ، تلك هى طريق الاسلام . فيترك مجوسيته ويدخل فى دين الخلفاء والأمراء والوزراء ، فقد يدرك بسبب إسلامه مالا يدرك وهو فى مجوسيته ، ثم هو مع ذلك لم يدعه يسلم على يديه ، بل يريد له أكثر من ذلك ، فيجب أن يضعه موضعا ينال به من دنيا الخلافة ، ويبلغ مبلغا رفيعا عند أصحابها ، فأمر سلاما مولاة وصاحب الفضل على أخيه أن يأخذ بيد ذلك الفتى المجوسى ، ويذهب به إلى جعفر مربى المأمون فيدخله جعفر على المأمون ، ويسلم على يديه .

ولما كانوا لا يستطيعون أن يفعلوا ذلك من غير أن يقف الرشيد على الخبر ، فإن يحيى البرمكى قرظ الفتى بحضرة الرشيد حتى احب الرشيد أن يراه ، ويعرف مقدار ما لمكانته من الحقيقة فى نفس يحيى ، فاستحضره يحيى فى مجلس الرشيد ، ولكن رهبة الخلافة أخذته ، وعقلت عليه لسانه ، فوقف حائرا مشدوها لا يدري ماذا يقول ؟ ولا إذا سئل فبماذا يجيب .

عجب الرشيد من امر هذا الفتى ، وأنكر على يحيى تربيته آياه ، وتقريبه اليه ، وإهدائه إلى ابنه المأمون ليجلس فى مجلسه ، ولكن الفضل لم يلبث أن فتح الله عليه وحل عقدة لسانه وقال : يا أمير المؤمنين ، إن أعدل الشواهد على فراهة المملوك أن تملك قابله هيبه سيده ، فتغير رأى الرشيد فى الفتى وقال بعد أن سمع منه هذه العبارة : لئن كنت سكنت لتصوغ هذا الكلام لقد أحسنت ، ولئن كان بديهة فهو أحسن وأحسن . إذن ، أحسن الكلام الفتى فى حضرة الرشيد ، وكان كلما سئل أحسن الاجابة ، فلا بأس عليه من أن يقربه ، ولا بأس عليه من أن يسمح له

بالدخول على ابنه المأمون والجلوس في مجلسه بعد أن أسلم على يديه . ولا عجب أن يرضى عنه المأمون فيصله . ويحسن اليه ، ويجرى عليه رزقا مع غيره من الحشم .

ظل الفضل بن سهل متصلا بالمأمون من ذلك الحين ، وصارت له خاصية به ، وصار له عنده محل ، وتولى الكتابة له ، وصرف أمره كله ، وقدم اليه النصيحة ما كان للنصح محل يقتضيه .

وكان على صلته بالمأمون يرعى عهد الرامكة ؛ أولياء نعمته ، وذوي الفضل عليه ، حتى إذا نكبهم الرشيد نكبتهم المعروفة ، أختص بالمأمون ، فلما انتفض خراسان على الرشيد وشخص إليه ، عزم على تخليف المأمون ، وعدم إشخاصه معه فقال له الفضل : لا تقبل ، وسله أن يشخصك معه ، فانه غليل ، وغير مأمون إن يحدث عليه حادث ، أن يثب عليك أخوك فيخلعك ، وأمه زبيدة ، وأخواله من بني هاشم . فسمع المأمون نصحه ، وسأل أباه أن يشخصه معه ، فأبى عليه ، فقال له إنى أريد خدمتك في هذه العلة ، ولست أسأل حاجة ، ولا أحملك مثونة . فاذن له ، فسار معه .

وهذه مناقصة في حازم ، وهب الله له ملكة عالية يقدر بها على تصريف أمور من أحبه وآثره .

شاء الله بعد ذلك أن يعتل الرشيد ، وأن تلح عليه العلة . وأن يقضى نخبه في طوس ، وأن يتولى الخلافة محمد الأمين ، وأن يغرى الناس الأمين بأخيه المأمون ، فيرسل إليه كتابا يأمره فيه بضم ولد الرشيد وحرمة وأهله إلى الفضل بن الربيع ويحذره أن ينفذ رأيا ، أو يبرم أمرا ، إلا بعد الرجوع إلى شيخه . وثقة آبائه الفضل بن الربيع ويأمره أن يقر الخدم على ما في أيديهم من الأموال والخزائن والسلاح ، وأن لا يخرج أحدا منهم عن ضمن ما يلي حتى يقدم عليه ، ويحذره ألا يأمر لأهل عسكره بعباء أو رزق إلا إذا تولى ذلك الفضل بن الربيع

أخرج الأمين أخاه المأمون بكتابه ، وكان هو الفضل بن الربيع مع الأمين فجد بالمسير بالعسكر بجميع ما فيه من خراسان . ولم يحسب للمأمون حسابا . ولم يأبه به ، فأحفظ ذلك التصرف المأمون ، وهم أن يلحق ابن الربيع ومن معه لقتالهم

ولكن ابن سهل صنعة المأمون ومناصحه والمخلص له ، لم يعجبه ذلك . من المأمون وقال له : إن فعلت هذا لم آمن أن يقبضوا عليك ، ويجعلوك هدية إلى محمد الأمين ، ولسكن تقيم ، ونكتب اليهم كتابا . وتوجه اليهم رسولا يذكركم البيعة وتسألهم الوفاء ، وتحذرهم الغدر والخشث ،

أعجب المأمون رأى الفضل بن . هل ، فكتب إلى الفضل بن الربيع كتابا ، ولكنك لم يقبل من الرسول ، ولم يلتفت إليه ، فعز ذلك على المأمون فخفف عنه صفيه وأمينه الفضل بن سهل بقوله :

هؤلاء أعداء قد استرحت منهم وبعدوا عنك ، ثم طمأنه من ناحية الخلافة : وأعلمه أنه ليس من الهين الانتقال على الخلفاء والخرج على ما قرره ، والرشد وضع نظام الخلافة من بعده ، فليس يسيرا على الناس أن ينقضه الأمين ولا سيما أنه يعرف أن المأمون نازل في أخواله ، وبيعتهم في أعناقهم ، وأن الأمين إذا خلعه فسيضطرب أهل بغداد ، وينقسم بعضهم على بعض ، وأوصاه بالصبر ، وتضمن له الخلافة إن شاء الله .

استشار للمأمون الفضل فأشار عليه مؤثرا المصلحة على نفسه ، ولا يرى على نفسه غضاظة أن يقدم أعيان خراسان على نفسه ، لأن من يخلص في النصيحة تتلاشى ذاته ومصلحته ، وليس أمامه مثل أعلى إلا أن يرى سياسته مقتصرة ولذلك كان جوابه للمأمون : إن رؤساء خراسان أنفع مني ، فدعني أكن خادما لك حتى تصير إلى ما تحب ، واجعل ظاهر الأمر اليهم وباطنه إلى ، فأعجب المأمون ذلك الرأي ، وتركه يفعل ما يرى .

رأى الفضل أن الأمر أصبح في يده ، وأن مستقبل المأمون في عنقه فحمل على عاتقه ذلك الأمر وذهب إلى رموس القوم في منازلهم ، لأن في ذلك تأنيبا لهم وذكرهم أمر بيعة الرشيد لابنائه ، وأن ذلك أمانة إسلامية وضعت في أعناقهم وبحب الوفاء للرشيد بأن يكونوا حراسا على عهد ، أمناء على بيعته ، أوفياء لأولاده .

قال الفضل : فسكنت كائنات آتيهم بجيفة على طبق لا يحل أكلها . فیدفعني بعضهم ، ويقول بعضهم : ومن يدخل بين أمير المؤمنين وأخيه ؟

حيث قد خاب ظن الفضل في ردوس القوم ، إذ دخلوه ، وتخرجوا وتأمموا وعظم في أنفسهم أن يتدخلوا في شئون الخلافة ، لأن هذا أمر فوق أن يخوضوا فيه ، أو أن يشيروا برأى .

فلما علم المأمون أنهم غير ناصريه ، أو أنهم على الأقل لن يتدخلوا فيما بينه وبين أخيه - أمر الفضل أن يقوم هو بالأمر ، وأن يصنع ما يرى أنه بالغ به غايته .

كان الفضل - كما قدمنا - نجيبا ذكيا ، فجعل همه أن يجمع الناس حول المأمون وأن يجعلهم مخلصون له ، ويقفون أنفسهم للذود عنه ، وتنفيذ سياسته ، ولا يكون ذلك إلا بالاحسان إليهم ، وتعطيف قلوبهم بلطف المعاملة ، وحسن السيرة والتودد إلى عظام خراسان والظهور للناس

بهذا كله أشار الفضل على المأمون ، إذ رأى أن يجمع الفقهاء ، ويدعوهم إلى الحق ، والعمل به ، وإحياء السنة ، وأن يجلس للظالم ويكرم القواد والامراء وأبناء الامراء ، وأن يغدق على العلماء ويقربهم ثم أشار عليه أن يحيط عن خراسان ربع الخراج ففعل ، فأحبه القوم ، وتعلقت به قلوبهم وقالوا : ابن أختنا ، وابن عم رسول الله . وقد نجحت تلك السياسة ، فانقاد إليه من عصاه ، وصار إليه من نأى عنه

نجحت سياسة الفضل إلى ذلك الحين ، فاقترح على المأمون أن يكتب له كتابا ينشره باسمه على الناس ، يبين لهم فيه خطته ، ويرسم سياسته ، إذا ولي الأمر ، ودخل الناس تحت إمرته .

كتب الفضل ذلك الكتاب الذي جعل فيه المأمون على نفسه لله إن استرعاه أمور المسلمين ، وقلده خلافته في خلقه - العمل فيهم بكتابه ، وسنة رسوله ، وجعل على نفسه ألا يسفك دما عمدا ، إلا ما أحلته حدود الله ، وسفكته فروض الله ، وجعل على نفسه ألا ينال من أحد من المخلوقين مالا ولا أثاثا غصبا ولا بحيلة تحرم على المسلمين ، وجعل على نفسه ألا يعمل في شيء من الأحكام بهواه . ولا يقضيه ما لم يكن ذلك في الله والله ، ثم أكد على نفسه العهد أن يسير تلك السيرة رغبة من الله في الزيادة ، ورهبة من المساءلة إن حاد عن الطريق ، وأقر على نفسه أنه إن تغير أو تحول كان مستحقا للعن ، متعرضا للتكال .

...

أخ الفضل بن الربيع على الأمين في خلع المأمون ، وقوى في ذلك عزمه وأعانه عليه بعض القواد ولم يعنه بعضهم الآخر ، ورأى المشفقون على الأمين أن يغير سياسته مع المأمون ، وأن يحاول أن يجعل خلعهم من الخلافة برضاه وموافقته ، إلا أن الفضل بن الربيع الذي كان يكره المأمون ويخشاه - أشار على الأمين أن يكون جريئاً في ذلك ، وألا يدع الوقت يطول بين الأخذ والرد ، فتسنع الفرصة للمأمون فيتألف الناس ، ويقوى جبهته ، وقد يكون في ذلك عسر عليه ومشقة . فانصاع له الأمين ، وباع لابنه بالعهد من بعده ، وخلع المأمون والقاسم ، ونهى عن الدعاء لهما على المنابر ، وأمر أحد الحجاب أن يذهب إلى الكعبة ، وينتطف في أخذ الكتابين اللذين كان الرشيد علقهما في الكعبة بالبيعة ، فذهب الحجاب إلى مكة ، وسرق الكتابين وحملهما إليه فمزقهما .

سارت الركبان في الآفاق بغدر الأمين بأخويه : المأمون والقاسم ، وباستيلاء الفضل بن الربيع عليه ، وتصريفه الأمور من دونه ، وكانوا كلماذكروا عن الأمين غدره ، ذكروا حسن سيرة المأمون ، ورجاحة عقله وتلفقه ، ورفقه بالناس ، فاستوحش الناس من الأمين ، وانحرفوا عنه ، وسكنوا إلى المأمون ، ومالوا إليه استوحش الناس من الأمين ، وكرهوا تصرفه ، وانفلوا عنه ، لانحرافه عن الحق ، وما انحرف إلا لسوء بطائه ، وفساد حاشيته ، وعدم إخلاصهم له ، واقد وصفه وزيره الفضل بن الربيع فقال : ينام نوم الظربان ، ويقبجه انتباه الذئب همه بطئه ، ولا يذكر زوال نعمة ، ولا يروى في أمضاء رأى ، قد شغله كاسه وهواه عن مصلحته ، والأيام توضع في هلاكه

أما المأمون فقد سكن إليه الناس ، ومالوا نحوه لحسن سيرته في قومه وجميل تصرف حاشيته وعلى رأسهم الفضل بن سهل الذي أحسن الرأي فأصاب وأجاد اختيار الرؤساء والقواد ، فسمعوا وأطاعوا وأخلصوا ، وأحبوه ، وأمره ، وراسلوه ، واستشاروه ، حتى إن طاهر بن الحسين بعد أن انتصر على جيوش الأمين ، وقتل قائدهم على بن عيسى يقول : أطل الله بقاءك ، وكهت أعداءك ، وجعل

من يشترك فداءك ، كتبت إليك ورأس على بن عيسى بين يدي ، وخاتمه في إصبعي وعسكره تحت يدي ، والحمد لله رب العالمين .

إذ ذاك فرح الفضل بن سهل ، وأسرع إلى المأمون ، وسلم عليه بأمر المؤمنين وسر المأمون أن تنجح سياسته وسياسة مناصحه ومستشاره ، وسره أن ينتصر طاهر ابن الحسين على علي بن عيسى بن مهران وغيره من قواد الامين ، ولكن لم يسره أن يقتل طاهر الامين ، وهو قسم المأمون في اللحمة والنسب ، ولم يسر ذلك أيضا الفضل بن سهل ، لما يعلمه مما عسى أن يكون له من الاثر السيء في نفوس العامة . فلما انتهى اليه الخبر قال : ما فعل بنا طاهر ، سل علينا سيوف الناس وألسنتهم ، أمرناه أن يبعث به أسيرا ، فبعث به عقيرا ؟

بلغ من نفوذ الفضل بن سهل أنه يولى من يشاء ، ويعزل من يشاء ، ويصل من يشاء ، ويقطع من يشاء ، إلا أنه ما كان يفعل ذلك عن هوى في نفسه ، أو رغبة في منفعة ، ولكنته كان يؤثر المصلحة ، ويتوخى القصد في كل ما يفعل ، فن آس فيه قدرة على قيادة الجيوش ، وقرأ في وجهه الاخلاص ، ولاه القيادة ، ولا يحول دون ذلك حائل ، ومن عرف قدرته على الكتابة ، والتصرف في أوجه القلم ، أقعده في الديوان ، وأقعد الكتاب بين يديه ، وما كانت تحبب فراسته في واحد من هؤلاء : فظاهر بن الحسين قائده الموفق في كل موقعة حتى انتهى إلى بغداد ، وأحمد بن يوسف كاتبه الذي بقي فضله على الكتاب إلى اليوم .

استقامت الامور للمأمون ، وأصبح خليفة المسلمين ، وخوطف بأمر المؤمنين ودعى له على المنابر فرد التدبير الى الفضل بن سهل ، وأمضاها على رأيه ، ولقبه ذا الرياستين : أى رياسة الحرب ، ورياسة التدبير ، وعقد له على لسان ذى شعبتين ، وأعطاه مع العقد علما كتب عليه لقبه ، وهو أول من جمع بين لقب الوزارة والامارة في الاسلام .

وقد عظم في عين المأمون ، ولم ينكر عليه فضله ، فسارع بعد استقامة الامور له ، وكتب اليه كتابا يعترف له فيه بالفضل والنزاهة والاخلاص ، ويقطعه مكافأة له ولأولاده من بعده ، مقاطعة بالعراق .

فيقول : أعتبت يا فضل بن سهل بمعاونتك إياي على طاعة الله ، وإقامة سلطاني ، فأردت أن أغنيك ، وسبقت الناس : من الحاضر كان لي ، والغائب كان علي ، فأحببت أن أسبق إلى الكتاب لك بخطي بما رأيته على نفسي ، وأنا أسأل الله تمامه فإن حولي وقوتي ومقدرتي وقبضي وبسطي به ، لا شريك له ، وقد أقطعك السيب بأرض العراق على حيازة تميم مولى أمير المؤمنين عطاء لك ولعقبك ، لما أنت عليه من الزهادة عن أموال رعيتي ولما قمت به من حق الله وحقى ، فلم تأخذك في لومة لائم ، ولم تراقب ذا سلطان ولا غيره ، وقد جعلت لك بعد ذلك مرتبة من يقول في كل شيء فيسمع منه ، ولا تتقدمك مرتبة أحد ما لزم ما أمرتك به من العمل لله ولنبيه ، والقيام بصلاح دولة أنت ولي بقيامها ، وجعلت ذلك كله لك بشهادة الله ، وجعلت لك كفيلاً على عهدي .



أذن استقامت الأمور للمأمون ، وصارت إليه ولاية أمر المسلمين وألقى المقاليد للفضل بن سهل ودفع إليه خاتمه لعظيم خدمته له ، ولعظيم ثقته فيه ، ولأنه ضمن له الخلافة فوقه ، وما زال يفكر فيحسن التفكير ، ويقدر فيحسن التقدير . حتى انتهى إلى ما يجب من التصرف في أمور المسلمين . ولكن الإنسان هو الإنسان ، والنفس الإنسانية هي هي في عظيم أو حقير : يزورها النصر ، وتبطلها النعمة ، ويحفظها أن ترى غيرها يزحمها في موطن عظمتها ، كما يؤلمها أن تهوى الظروف لغيرها ما هيأته لها من أسباب النصر والفخار .

رأى الفضل طرق السعادة تنبأ لغيره . من قواد المسلمين وروءوسهم من كانت لهم يد في نصر المأمون ، ومن كان الفضل نفسه يرى أنهم شيعة المأمون وأهل ولايته وبطائه ، وكان يرى أن في مشاورتهم تأنيساً لهم ، وكان يرى أن في قطع الأمر دونهم وحشة وظهور قلة ثقة بهم ، وكان يرى أن عدم استشارتهم تكدرهم ، وتجعلهم يجدون عليه ، وكان يعرض نفسه عليهم في منازلهم ، وكان إذا تناقل أحدهم في أمر سأله أمنيته ، فإذا تمنى أجابه إلى أمنيته ، وكان يقول . إذا نال الرجل المني خاض الدماء .

هذه هي السياسة التي نجح بها الفضل ، والتي حببته إلى الناس ، والتي جعلت المأمون يلقي إليه بخاتمته ، ويجعله مطلق التصرف في أمور دولته . ولكنه لبس ثوبا غير ثوبه الأول ، وتذكر لمن كان على أيديهم النصر ، وعلى أسنة رماحهم وظي سيوفهم قامت دولة المأمون ودالت دولة الامين . فاذا فعل ياترى !

حال بين المأمون وبين ناصريه ، واستبقاه في خراسان ، فلم يستطع أحد منهم أن يتقدم إليه ليقفه على حقيقة الامر . وان استطاع واحد أن يصل إليه لا يجد فرصة يتحدث إليه فيها عن شئون رعيته ، وعما يجري في الخفاء حيث لا علم له به يدبره الفضل ويضئ الامور على رأيه ، ولا يعرف المأمون . فينتقض الناس على المأمون ، وتقرم الفتن والفتن في مختلف البلاد والاقطار ، ويكثر المنفلون عن الخلافة ، ويشغب عليه الطالبيون

وتعجب أن يكون ذلك من تصرف الفضل وهو الذي يقول في توقيع له : الامور بتمامها ، والاعمال بخواتيمها ، والصنائع باستدامتها . ومع ذلك فلم يحسن الخاتمة ، ولم يدم الصنائع .

أليس هو الذي وجد في نفسه على طاهر بن الحسين ، واضع أساس الدولة ، والمتنصر على جيوش الامين ، وقاتل على بن عيسى بن ماهان ، ومرسل رأسه اليه ، ثم قاتل الامين في بغداد ومزبل خلافته ، ولم يعبا بعتب وجوه خراسان عليه وعزله عما كان يتولاه من الاعمال ومع ذلك فان طاهرا أرسل اليه كاتبه عيسى بن عبد الرحمن ليظهر الاعتذار ، فلما ورد عليه كلمه كلاما كثيرا ، وأغلاظ له ، ثم قال : فلولا أنى رسول الله مأمون ما قلت ما قلته ، فقال له الفضل : أفما خشيت من تحمل هذه الرسالة القتل ؟ فقال عيسى : ما شككت في القتل ، ولكنى مثلت بين أن آتى على صاحبي تحملها ، وبين أن أقبلها ، فرأيت أنى إن لم أتحملها عجل لى القتل ، وحصلت لى مذمة المخالفة ، وإن قبلتها كنت قد شكرت نعمته ، وأطعت أمره ، وعشت بينه وبين الامير أعزه الله المسافة التي عشتها . ثم اهلى أكون وردت من فضل الامير وعفوه وحله على ما أرجو ألا أبعد عنه ، فقال له الفضل . لو أطعت فيك النصحاء لاسترحت منك ، ولم تكلمنى في مجلس أمير المؤمنين ، ودار الخلافة ، بما كلفنى به .

فقال له عيسى . وما رأى النصحاء أعز الله الأمير ؟ فقال له الفضل . أن كنت أضرب عنقك قبل أن تصل الى ، وأرد رأسك في مخلاة الى صاحبك ، فأكون قد قطعت يده ولسانه . فقال له عيسى ، أنا يده ولسانه ، والله لو أن صاحبي أخرج يده من مضربه ، لوجد حوله سبعين بل سبعمائة ، بل سبعة آلاف كلهم أغنى وأجزأ وأكفأ مني ، ومن أنا فيمن قد عضده الله به ، وأعطاه من كفاته ؟

بلغ كلام عيسى من الفضل كل مبلغ ، ووقع في نفسه أن في وجود طاهر خطرا عليه ، ولا سيما أنه عزله عن البلاد التي تولاها ، وأقصاه عن أمرتها ، وولى مكانه أخاه الحسن بن سهل .

وكذلك وجد الفضل على هرثمة شريك طاهر في فتح بغداد ، وقامع ثورة أبي السرايا والذي عز عليه أن يكون بين المسلمين ما هو كائن من تدميرهم ، ونفورهم وضعف الروح المعنوية فيهم ، فصمم على أن يتصل بالمأمون مباشرة ، وأن يسدى إليه النصيح . ويقفه على حقيقة الامر . ولكن ، هيات ! فقد دس له الفضل عند المأمون ، وملا صدره حفيظة عليه ، حتى أنه عندما مثل بين يديه عنقه ، وأغاظ له في القول ، ونهره ، ووثب عليه الحراس ، فأوسعوه ضربا ، ثم ألقوه في غيابة السجن حيث مات ، وشاع في الناس أن المأمون قتله .

• • •

ويظهر أن الناس فطنوا الى سياسة الفضل ، ولم يهتموه بالتصرف في أمر الخلافة فحسب . بل زعموا أنه يريد أن يجعل الملك كمرويا ، وأن يحوله من بني العباس الى الفرس ، حتى أنه عندما أراد المأمون أن يحول الناس من السواد الى الحضرة استرضاء للطلالبيين لم يقبلوه ، فبعض أجاب ، وبعض امتنع . ودب الهاشميون بعضهم الى بعض في بغداد ، وأرادوا خلع المأمون الذي ما يزال مقبلا بمرور ، ولكن المأمون قال لوزيره الفضل . ينبغي أن تحضر نعيم بن أبي حازم ، فانه وجه من الوجوه ، وله سابقة وجمالة وسياسة ، فتناظره فيما أجمعناه من هذا الامر . فاحضره الفضل بحضرة المأمون ، وعرفه ما عزم عليه من خلع السواد ونهذه ولبس الاخضر ، ورغبه فيه ، وذكره بما يلزم من الانقياد له ، فلم يرق ذلك في

نظر نعيم ، وعز عليه أن يكون نصير الهاشمي ، وأن يقطع في ذلك عمره ، وأن يناضل هو وغيره حتى وصلت الدولة الى ما وصلت اليه من عز وثروة وجاه وأمن ، وأن يبذل هو وغيره مهجهم وأرواحهم في مقارعة أعداء الدولة من الطالبيين وغير الطالبيين ثم قال . انه لا يقبل الضيم ، ولا يسمح بطاعة من كان يسفك دمه ، ويدفعه عما يلمسه ، ويقارعه دونه .

فلما رأى الفضل صلابته ، وما كان في كلامه من مغالطة ومخاشنة وإصرار ، تعجبهم له وخلط له لينا بغلظة ، وكان ذلك منه على غير عادة . فظل نعيم على اصراره وزاد في المغالطة والمخاشنة ووجه اليه تهمة الخيانة التي وجهت الى البرامكة من قبل ولم يخش سلطان الفضل . وسيطرته على المامون ، وتسلمته على أمور الدولة وقال بخاطبه ، انك انما تريد أن تزيل الملك عن بني العباس الى ولد علي ، ثم تحتال عليهم فتصير الملك كرويا ، وهو لا أنك أردت ذلك لما عدلت عن لبسة علي وولده وهي البياض ، الى الخضرة ، وهي لباس كسرى والمجوس ، ثم أقبل على المامون فقال : الله الله يا أمير المؤمنين ، لا يخذ عنك الفضل عن دينك وملكك ، فان أهل خراسان لا يجيبون الى بيعة رجل تقطر سيوفهم من دمه ، يعني عليا الرضا . فقال له المامون : انصرف ، ولم يظهر له غضبا

اذن : لم يجمع الناس على سياسة الفضل ، ولم يعجبهم أن يتملقوا الطالبيين ، في التزني بزيمهم ، ثم في المبايعة لعلي الرضا ، بل زادوا في ذلك أن اتهموا الفضل في حضرة المامون بأنه يريد أن يجعل الملك كسرويا ، وتصريح نعيم بن أبي حازم بذلك لا يعتبر رأيا شخصيا له ، وانما هو رأى جمع غفير من الناس ، فهو في قومه سابق مقدم ، له رياسة ، وله جلال ان رضى رضى له كثيرون ، ولذلك كان رأى المامون والفضل اقناعه بضرورة العدول عن السواد الى الخضرة ، لانهما رأيا في ذلك اعتبارات سياسية تضطرم اليه ، ولكن نعيما وأمثال نعيم من رموس القوم لم تعجبهم سياسة الفضل ويرموا بها . حتى ضاقوا به ذرعا وأبغضوه الى حد جعل نعيما يغلظ له في القول ويرميه بالخيانة ، رغم ما كان بينهما قبل ذلك من مودة فقد كان نعيما يجلس في مجلس الفضل ، ويسمع له ، ويعمل على توقيره واحترامه ،

حتى لقد أنكر على أحد الكتاب أنه ينزع قلنسوته ، ويجعلها إلى جانبه ، إذا دخل على الفضل ، ولم يكتب بانكار هذا ، بل يغضب ، لأن هذا يخالف تقاليدهم ، ويدل على أنهم لا يحترمون من يفعلون ذلك بحضرة ، ويعتب على أحد أصدقاء ذلك الكاتب الذى يخلع قلنسوته فى مجلس الأمير ، ويعبر عن ذلك بأنه استخفاف بالأمير وبأن الناس تكلموا فيه ، فإن لم يقلع عن هذا فإنه سيدنو منه ، وينهره ، ويرد قلنسوته إلى رأسه بعنف وانكار .

فنعيم بن أبى حازم كانت له صلة طيبة بالفضل ، يحله ، ويحترمه ، ويدفع عنه ، ويخاصم من أجله ، حتى إذا ساءت حالة الناس فيه ، ونحول عن السياسة التى رسمها لنفسه وإصاحبه المأمون قبل أن يستقيم لهما الأمر ، وشاعت الشائعات من بين يديه ومن خلفه ، كان ما كان من أمر نعيم مع الفضل والمأمون ، بسبب تغيير الشارة من السواد إلى الخضرة ، ترضية لعل الرضا ، ولى العهد الجديد ، وترضية لمن حوله من الطالبيين

لذلك كان لا بد من التفكير فى أمر نعيم ، كما فكروا فى أمر طاهر وهرمة وغيرهما ممن لهم فى قومهم سابقة ورياسة وجلال وإن نجاح سياسة الفضل مرهون بالتخلص من نعيم . فماذا يصنع ؟ أيقطعه كما أشار عليه المأمون ؟ لا : أن ذلك من خطر الرأى وغطاى التقدير وسوء التدبير لأنهم قتلوا هرمة ، وقدره فى الناس قدره ، وقد يتقن الناس أنهم قاتلوه ، وضربوا من قبل عتق يحيى بن عامر . وأمروا بحمل عبدالله ابن عامر ، وضربه كما يضرب الصبيان ، وهؤلاء جميعا أمراء فى قومهم ، يرضى الناس برضاهم ، ويسخطون بسخطهم ، ويتدمرون لقتلهم . أو تعذيبهم . أو إهانتهم . لهذا كله تخوف الفضل من قتل نعيم ، لأنه إن فعل كان لأهل خراسان حركة واضطراب ، إذن : لا بد من التفكير ، وأعمال الرأى ، فى التخلص منه ، بحيث لا يتحرك الناس ولا يضطربون .

فكر الفضل والمأمون طويلا ، ثم رأى الفضل أن يوجهه فى عدة قليلة ليحارب أحد الخارجين عليهم ، ويكتب إلى العمال الذين يجتاز بهم بتركه . وعدم الاكتراث به . ولكن المأمون يكره أن يصير الى ذلك الخارج ، وينضم اليه ، أما الفضل فقد أقنعه أن انضمامه الى الخارج عليهم . أهون من بقاءه بينهم ، والرأى مارأى الفضل

لا ما رأى المأمون ، فانهم سيروا نعيما في تلك العدة القليلة ، ولكنه لم يلبث أن انضم إلى أعدائهم . فأظهر العداوة لهم . وأعلنوا الغدر به إن أمكنتهم المقادير منه ، وقد كان لهم ما أرادوا . فانهم ظفروا به . وأدخل حافيا حاسرا على الحسن بن سهل يعتذر اليه ويقول : ذنبي أعظم من السماء . ذنبي أعظم من الهواء . ذنبي أعظم من الماء . فيقول له الحسن : على رسلك . فقد تقدمت منك طاعة ، وكان آخر أمرك توبة . وليس للذنوب بينهما مذهب . وما ذنبك في الذنوب بأعظم من عفو أمير المؤمنين عنك في العفو . وقد أقالك الله . وعفا عنك

• • •

بدأت سياسة الفضل تتحول وتبديل كما ذكرنا . فولى أخاه الحسن بن سهل إمارة البلاد التي فتحت على يد طاهر بن الحسين . وأخذ يدس عند المأمون للقواد والرؤساء من العرب ويحول بينهم ويذنه . ويبلغه أخبار الدولة على غير حقيقتها وتشبه بالملوك في معاملة الناس . فخوطف بالامارة . وكان يجتمع اليه القواد والفقهاء والقضاة ووجوه القوم . ويجلس بينهم على سرير خاص . وكان لا يدخل على المأمون إلا على كرسى مجنح . ولا يزال يحمل حتى تقع عليه عين المأمون . فاذا أحس أنه رآه محمولا أمر بوضع الكرسي . ونزل عنه ومشى ويحمل الخدم الكرسي . حتى إذا وصل الى المأمون سلم عليه . ووضع له ذلك الكرسي المجنح . فيجلس عليه في حضرة الخليفة . وتلك عادة كسروية ذهب فيها الفضل مذهب الأعاجم . واستولى على المأمون حتى ضايقه في جارية أراد شراءها

تحدث الناس بشأن الفضل واستيلائه على الخليفة . وبسط سلطانه . والكيده للرؤساء والقواد . وبسطوا ألسنتهم فيه . ولكن بعضهم رأى من حق الدين عليه أن يتقدم الى المأمون . وأن ينصح له . حتى يلقي ربه راضى النفس . مطمئن الضمير ومن هؤلاء هرثمة بن أعين الذي قدم الى مرو . ورغب في المثول بين يدي المأمون مغاضبا ذا الرياستين . فلما دخل دار المأمون وجد ذا الرياستين جالسا على الكرسي في الدار . والمأمون في دار أخرى . فلما انتهى هرثمة الى موضعه تعهد ولم يسلم على ذي الرياستين ، فلما انتهى ذو الرياستين من نظر ما كان بيده . التفت الى هرثمة وقال

مرحبا وأهلا وسهلا يا أبا حاتم ، أسعدك الله بمقدمك ، وعظم بركته عليك ، فلم يرد عليه ، هرمة شيئا ، فاستمر الفضل في حديثه ، قال : انى قد عرفت امير المؤمنين - اعزه الله - خبرك ، وأن ما حملت نفسك عليه من الدخول بغير اذن لغير معصية منك وصرفت ذلك الى أحسن الجهات فقبل ذلك ، ورجع ما سبق الى قلبه منك ، فلم يرد عليه هرمة شيئا

الآن الفضل القول لهرمة ولأطفه ، ولكن هرمة جاء لبقاضيه أمام الخليفة ، فلم تؤثر فيه ملائنة ولا ملاطفة ، فخشى الفضل أن هرمة اذا اتصل بالخليفة ، يؤثر عليه ويظهره على حقيقة الحال ، فخف مسرعا الى الدار التي فيها المأمون ، وتحدث اليه بما شاء أن يتحدث به ، ثم خرج الى هرمة وقال له : يا أبا حاتم ، قد عرفت أمير المؤمنين مكانك ، والحال التي أنت عليها من العلة ، وأنه لا يمكنك الوصول اليه إلا على الحال التي وصلت عليها اليها . فلم يرد عليه شيئا ، وبعد قليل أذن له المأمون بالمشول بين يديه ، فلما دخل عليه سلم ، فرد المأمون السلام ، ثم بره وأقبل عليه وأمر أن يطرح له كرسي الى جانبه ، وأقبل عليه بحديثه ويسائله ويعظمه ، ويدعوه بقوله : يا أبا حاتم احتراما له ، ولم يلبث الفضل أن دخل عليها . وطرح له كرسيه الممنوع وجلس ، وبدأ المأمون حديثه والفضل جالس ، قال : يا أبا حاتم ، ما كان لتجشمك هذا السفر مع علتك معنى ، فقال : بلى يا أمير المؤمنين ، تجشمت لأقضى حق الله على في طاعتك ، وأنبهك على أمرك ، وأقول بالنصح لك ، فقال : يا أبا حاتم ، ليست بك حاجة الى هذا وأنت تعب ، فانصرف الى منزلك ، قال : كلا يا أمير المؤمنين ، ما تجشمت طول السفر لانصرف الى منزلى ، قال المأمون : بلى يا أبا حاتم ، أحب ان تنصرف الى منزلك ، وتدع ذكر ما لا يحتاج اليه ، وأنت عنه غنى ، قال : لا يا امير المؤمنين أو اقضى الحق على في نصحك ، لاني لا آمن ان يحدث على في هذه الساعة حادثة فألقى ربي مقصرا في حق امامي

من هذا يرى ان المأمون يحاول ان يصرف هرمة عن الكلام ، لأنه يعلم انه سيتكلم في امر ذي الرياستين ، ولكن هرمة يابى الا ان يتكلم ، ويلج في ذلك الحالها ، لا يصرفه عنه محاولة امير المؤمنين في ثنيه عنه ، فالخليفة يلاين هرمة ويلج في صرفه ، وهرمة يرى واجبا دينيا عليه ان يتناصح لإمامه ، فيندفع ويقول :

الحمد لله الذى لم يمتنى حتى رايت هذا المجوسى فى هذا المجلس على كرسى ، يا امير المؤمنين ، ما لفلان وفلان يحبسان بغير ذنب ، وبأخذ هذا المجوسى اءوالهما وامتعتهما فيبيعها ويمزقها ؟ !

عز على المأمون ان يتكلم هرثمة عن الفضل بمثل هذا الكلام والفضل صاحبه وصفيه وحواريه وجالب الخلافة له ، فتشكر المامون لهرثمة ، وأغلظ له فى القول وأمره أن يسك عن ذكر ما لا يحتاج اليه ، ولكن هرثمة لا يمتنع عن الكلام ويصر على أن يدفع المأمون اليهم هذا المجوسى لينزلوا به ما يستحق ، فغضب الفضل ورد على هرثمة ردا شديدا ، وأمر الحراس أن يأخذوا برجله ويجروه من بين يدى الخليفة ، ففعلوا ما أمروا به ، وحبس ثمانية أيام ثم أخرج فى اليوم الثامن ميتا

شق على كثير من الناس قتل هرثمة ، وبلغ من جزعهم عليه أن دخل أحد القواد على المأمون ، وسلم عليه ، وناداه يا أمير المنافقين ، فوثب عليه الفضل وضربه بسيفه فقتله .

وكذلك كان عبدالله بن مالك ، فان الفضل أراد أن يستذله وينكل به ، وأراد أن يستشهد عليه ببعض الناس ، فلم يجيبوه الى تلك الشهادة ، ولكنه تمكن من تنفير المأمون منه ، ومكن فى نفسه البغض له ، فانه اجتمع فى مجلسه يوما القواد والقضاة والفقهاء ووجوه العامة ، وبعد أن استقام له المجلس على كرسيه ، ابتدا الوقعة فى عبدالله بن مالك ، وذكر انه كان يدعى على الرشيد ، انه كان يدخل بيوت الفتيان ، ويزه الرشيد عن ذلك ، ويرمى عبدالله بالفسق والفجور والمروق ، ويرميه بأنه كان باقى المواخير والساكر ، لا يرفع عن ذلك نفسه ، ولا يأنف من فجره ولا يصون عرضه عن قدره

وهو اذ يرمى بذلك عبدالله يحاول أن يستشهد عليه ببعض وجوه من يتكلم معهم ، ويتحدث اليهم فيقول ، ان ابا معن ليعلم ذلك ، ويعرف ما اقول (يريد بائى معن ثمامة بن الاشرس) ولكن ثمامة يطرق الى الارض ، ويخرج بالصمت عن لا ونعم ، لان عبدالله بن مالك عربى مثله ، ولانه اذا قال نعم ، كان سبيا فى

هلاكه ، فاستمر الفضل في كلامه ، وتوسع في الادعاء على عبدالله حتى رماه بالخيل ثم اقبل على ثمامة مرة ثانية ، واستشهد به ، فلم يجبه ، وخرج باصممت عن لا ونعم وانما كان يرجو الفضل من ثمامة ان يؤمن على كلامه امام هذا الجمع من القواد والقضاة والفقهاء ووجوه العامة ، حتى اذا فتك به بعد ذلك لم يقيم من يعترض عليه ، فلما لم يجبه ثمامة الى ما يريد استمر في قذفه حتى فرغ من كلامه

فلما انصرف الناس احس ثمامة انه تعرض لموجدة الفضل وهو الوزير ، والمقدم عند الخليفة ، فما كاد يصل الى منزله حتى لحق به بعض اخوانه من شيعة الفضل ، وعتبوا عليه ان اعرض عن الفضل يخاطبه مرة بعد مرة ، فقال لاصدقائه : انا والله احق بالموجدة عليه اعزه الله ، لانه قام في مثل ذلك الجمع ، وقد حضره كل شريف ومشروف ، ولم يستشهد بي في خطبته ، وما اجراه من كلامه الا في موضع ريبة او ذكر سكرة ، ومنزل مقين او مقينة ، والله ما اقدر ان اشهد بذلك . فصدقه اصدقاؤه وراوا انه احق بالمعتبة عليه .

وهو وإن كان بذلك استطاع أن يدفع عن نفسه موجدة الفضل عليه ، فانه يصرح لخاصته أنه مارد على الفضل تشيما لعبد الله بن مالك .

ويظهر أن الفضل كانت في نفسه موجدة أى موجدة لعبد الله بن مالك ، فانه مازال بالمأمون حتى وجد هو أيضا عليه ، ويخيل إلى أن عبد الله بن مالك كان يسبل لسانه على الفضل لينال منه ، فشكاه الفضل الى المأمون ، فأحضر قاضي خراسان ، وجلس للقضاء على مسمع من المأمون ، ليحكم في قضية ادعاها الفضل على عبد الله بن مالك وشكا من أنه شتم أمه ، ولكن القاضي كان شاكا في تلك الدعوى ، فسأل الفضل : وأملك باقية ؟ قال نعم . قال : فالحق لها ، إن كنت صادقا ، فلتحضر لئطالب بحقها ، أو توكلك ، ويشهد عدي شاهدان أعرفهما بتوكيلها إياك بطلب حقها . ففرج الفضل من المجلس ثم لم يلبث أن عاد ومعه شاهدان ، شهدا أمام القاضي أن أمه قد وكلته بطلب حقها . فلما سئل عبدالله بن مالك أنكر ما ادعاه الفضل عليه ، فسأل القاضي الفضل أن يقيم البيعة ، فشهد الشاهدان نفسيهما بصدق ما ادعى ، وطلب من القاضي

أن يأخذ له بحقه ، ولكن القاضى كان ذكيا ، فتبين فى الشاهدين كذبهما ، ورجع أن الفضل هو الذى حملهما على الشهادة بالتوكيل ثم الشهادة بصدق الدعوى ، وأبى أن تباح ظهور المسلمين بشهادة مثل هذين الرجلين ، إلا أن المأمون لم يطمئن إلى رأى القاضى ، وأحب أن يؤخذ عبد الله بشهادة الرجلين ، فصاح : أحكم له بشهادتهما ، فابى القاضى ، واقترح على المأمون أن يحكم هو بشهادتهما ، فهو الامام ، وهو الخليفة ولا راد لحكمه ، فأمر المأمون بالقاضى ، فسحب من الدار ، وحكم هو بضرب عبد الله .

رأى الفضل بعد ذلك أن يحارب العرب بسلاح البرامكة ، فقرب اليه الشعراء . وأغدى عليهم العطاء ، فأطلقوا ألسنتهم فى مدحه وإطرائه ، وفيه يقول أحدهم :
لعمرك ما الأشراف فى كل بلدة وإن عظموا إلا لفضل صنائع
ترى عطاء الناس للفضل خشعا إذا ما بدا والفضل لله خاشع
تواضع لما زاه الله رفعة وكل رفيع قدره متواضع
ومن مداحه ابراهيم الصولى ، ومسلم بن الوليد ، وغيرهما ، من كبار شعراء العصر العباسى الأول فانهم أحاطوا به لكثرة رفقده ، وسنى عطائه ، ومدحوه وبالنوا فى مدحه ، فكان له من ذلك اكان لساته وكبرائه البرامكة من قبله ، ومن قول أحد الشعراء فيه .

للفضل بن سهل يد تقاصر عنها المثل
فتائلها للبنى وسطوتها للأجل
وباطنها للندى وظاهرها للقبيل

ومن مدحوه محمد بن عبد الملك الزيات بقوله

ياناصر الدين إذ رقت حباله لأنت أكرم من آوى ومن نصرا
أعطاك ربك من إكرام نعمته رياستين ولم تظلم بها بشرا
لو كان خلق ينال النجم من كرم إذا نالت يدك الشمس والقمر

لم يجده نفعاً أن قرب إليه الشعراء فدحوه وبالنوا فى مدحه ، لأن سياسته التى

انتصر بها ، وأزال خلافة ، وأقام أخرى لم تكن هي السياسة التي سار عليها بعد أن استقام الأمر له ولصاحبه . فانه كما قدمنا استبد بالآمر من دون غيره من القواد والرؤساء ووجوه القوم . وحال بين المأمون وبين رعيته . وحجب إليه المقام في مرو دون بغداد مقر الخلافة . ولم يستطع أحد أن يبلغ المأمون ما فعله الفضل بظاهر وهرثمة وغيرهما . وأصبح الناس يبعضون المأمون . والمأمون يبعضهم . فالفضل عنده كل شيء . وما يشير به هو الخير لكل الخير وما عداه هو الشر لكل الشر . ولكن الأمور لا تستقيم على مثل هذه الأحوال . ولا بد أن يهيء الله من تتغير المسائل على يديه . ويجريها صالحة طيبة . إلا أن الفضل كان بالمرصاد لهؤلاء الناس . فإذا تمسكوا من صاحبه أفسده عليهم فيغلظ لهم . ويحاشنهم . ثم ينكل هو بهم ويتعتتهم . فيقتل بعضهم . ويحبس بعضهم . ثم يضرب بالسياط وينسف اللحى ؛ وكان هذا يجعل الناس يتهيبون الأمر . ويفضلون الانتفاض على الخليفة والانفلال عنه . وتفتق الأقطار عليه . على أن يعرضوا أنفسهم للتشكيل والتعنيت .

ظل الحال على ذلك زمانا : فلا ناصح أمين . ولا أذن سامعة واعية ؛ حتى استيقظ على الرضا ولي عهد المأمون وضاق بالفضل ذرعا وخشى على الدولة أن تتمزق . ولا سيما أن له فيها اليوم ضلعا فهو شريك صاحبها . وولي عهده والخليفة من بعده .

دخل على هذا على المأمون يوما وكاشفه بحقيقة الحال وأطلعه على ما كان يكتمه عنه الفضل وأعلمه أن أهل بيته والناس قد نعموا منه أشياء وأنهم يقولون : إنه مسحور أو مجنون وأنهم لما رأوا ذلك بايعوا لعمه إبراهيم بن المهدي بالخلافة . فقال المأمون : إنهم لم يبايعوا له بالخلافة وإنما صيروا أمير القوم بأمرهم كما أخبره الفضل فأعلمه أن الفضل قد كذبه وغشه وأن الحرب قائمة بين إبراهيم والحسن بن سهل وأن الناس ينتمون منك مكانه ومكان أخيه منك ومكاني ومكان بيعتك لي من بعدك فلما علم المأمون بذلك أراد أن يستوثق من الأمر قبل أن يتخذ له رأيا فسأل عليا الرضا عن الذين يعلمون ذلك الأمر من أهل عسكره فذكر له على بعضا منهم فأمر بادخالهم عليه يسألهم عما ذكر على ؛ فلما مثلوا بين يديه سألهم عن حقيقة

الامر ولكنهم كانوا يرهبون سلطان الفضل ويخشون أن يلحق بهم مثل ما ألحق
بغيرهم من التعذيب والتشكيل فجعل لهم الأمان من الفضل وأخذ على نفسه عهدا
ألا يدعه يتعرض لهم فوق قفوه عل حقيقة الحال وأطلعوه على ما هو مشتعل من نيران
الفتن وأخبروه بغضب أهل بيته ومواليه وقواده عليه في أشياء كثيرة وعرفوه أن
الفضل دس الى هرثمة من قتله وما كان من هرثمة شيء أكثر من أنه كان يريد
مناصحة الخليفة بما ينصحونه به الآن وأنكروا عليه أن طاهر بن الحسين الذي أبل
في طاعته ما أبلى ، وافتتح من البلاد ما افتتح ، وقاد إليه الخلافة مزومة - أنكروا
عليه أن هذا الذي وطأه الامر يخرج من الامر مسخوطا عليه وبصير الى زاوية من
الارض وتحظر عليه الاموال ليضعف أمره ويشغب عليه جنده .

وما زال القوم بالمأمون حتى غيروا رأيه وأقنعوه بضرورة الخروج الى بغداد
لكي يهدأ الناس ويطمئنوا عليه ويتقدموا له بالطاعة وتهدأ الثورات التي اشتعلت
في أكثر البلاد .

علم الفضل بالامر فجاء بمن ينصحوا المأمون ونكل بهم تشكيلا شديدا ولم يحممهم
المأمون ولما قيل له في ذلك اجاب بأنه يذارى ما هو فيه ثم أمر بالخروج من مرو
الى بغداد فلما وصل في طريقه الى سرخس تأمر قوم على الفضل ودخلوا عليه في الحمام
وشدوا عليه فضر به بالسيوف حتى مات في أوائل شعبان سنة ٢٠٢ هـ

والذي أرجحه أن المأمون حينما تفتتت عليه أقطار الدولة وانفل عنه أقاربه من
بنى العباس واجترأ عليه بعض الرؤساء وخاشنه حين كان يعتب عليه في استسلامه
للفضل وأخذ العهد على المسلمين لمبايعة على الرضا من بعده وقامت الثورات في كثير
من البلاد وبوبع لابراهيم ابن المهدي بالخلافة في بغداد حينما حدث هذا كله تلفت
حواله فوجد أنه مقبل على ظلام شديد لا بد أن يسارع إلى تبديده وإزالة تسحبه واحدة
فواحدة فدس على الفضل من قتله ، ثم جاء بقتله وأجرى معهم تحقيقا لجامه بأنه
الآمر بقتله فقتلهم إما خشية أن يفتضح الامر وإما ارضاء لاختيه الحسن الذي تزوج

من أبنائه وولاه الوزارة مكانه . ثم أتى بمن كانوا يتقدون سياسة للفضل وقتلهم ، ثم قتل عليا الرضا إرضاء لبني العباس ، ثم حرص خادما له على طاهر بن الحسين فسمه وكان سببا غير مباشر في اعتقال الحسن بن سهل بعلّة زامنته أكثر من ثلاثين عاما حبس من أجلها في بيته ، وقيد بالحديد .

بعد أن تخلص من هؤلاء جميعا صفا له الجو ، واستنار الطريق ، وصار خليفة من جديد .

وبعد — فإن موقف الفضل من المأمون ، وموقف المأمون من الفضل ، يذكرنا بما كان بين أبي مسلم الخراساني والمنصور ، وبما كان بين البرامكة والرشيد ، فكان على الفضل أن يتعظ بما جرى لأبي مسلم من قبله ، ثم بما جرى لأساتذته البرامكة على مر أي منه ومسمع .

ولكن يظهر أن الانسان هو الانسان ، من أي جيل وفي أي زمان ، يطغيه السلطان ، وتبطره النعمة ، وتعميه شهوة الرياسة عن النظر فيما يجري حوله من أمور . ويخيل إليه أن على بصر الناس غشاوة : فليس لهم ردوس ، وليس في ردوسهم عقول ، وهؤلاء وأمثالهم ، لا يضلون إلا أنفسهم ، ولا يؤتون إلا من مأمئهم ، فاللهم اجعل لنا في سير الماضيين عبرة ، وهي لنا هن أمرنا رشدا .

مراجع البحث

- | | |
|----------------------------|---------------------------------|
| ١ - تاريخ الطبرى ج ٩ | ٧ - وفیات الاعيان ج ١ |
| ٢ - الكامل لابن الاثير ج ٦ | ٨ - الاعلام ج ٢ |
| ٣ - تاريخ ابن خلدون ج ٣ | ٩ - مختارات البارودى ج ٢ |
| ٤ - مروج الذهب ج ٣ | ١٠ - الامالى ج ٣ |
| ٥ - تاريخ ابن الوردى | ١١ - التنبيه والاشراف للسعودى |
| ٦ - الاخبار الطوال | ١٢ - الوزراء والكتاب للجهمشيارى |

محمد احمد برانقو